الفصل الثاني
السيارة ليكساس
وشجرة الزيتون

هب أنك تدرك أن العولمة هي النظام الدولي الذي حل محل نظام الحرب الباردة، فهل ذلك هو كل ما يجب أن تعرفه حتى يتسنى لك تفسير الشؤون الدولية اليوم؟

ليس تماماً. فالعولمة هي ما هو جديد. وإذا كان العالم قائماً على مجرد شذرات الكمبيوتر الدقيقة والأسواق، فربما يستطيع المرء الاعتماد على العولمة في تفسير كل شيء تقريباً. لكن العالم -وا أسفاه- قائم على شذرات الكمبيوتر الدقيقة والأسواق والرجال والنساء بكل ما لديهم من عادات وتقاليد وأشواق وآمال غريبة يصعب التنبوء بها.

وهكذا لا يمكن تفسير الشؤون العالمية اليوم إلا باعتبارها تفاعلاً متبادلاً بين ما هو حديث جداً مثل الموقع على شبكة الإنترنت، وما هو قديم قدم شجرة الزيتون ذات العقد على ضفاف نهر الأردن. لقد بدأت التفكير في ذلك حين كنت مستقلاً القطار في اليابان في شهر مايو عام 1992، وكنت أتناول صندوقاً من السوشي على العشاء، ومسافراً بسرعة 180 ميلاً في الساعة.

obeikandl.com

كنت في طوكيو في مهمة صحفية وكنت أعتزم زيارة مصنع السيارات الفارهة من طراز ليكساس الموجود خارج مدينة تويوتا جنوبي طوكيو. وكانت جولة لا تنسى. ففي ذلك الوقت كان هذا المصنع ينتج 300 سيارة ليكساس يومياً، يصنعها 66 إنساناً بشرياً و310 إنساناً آلياً (روبوت).

وتبين لي مما رأيت أن مهمة العاملين من البشر تقتصر في الغالب على مراقبة الجودة. ولم يكن هناك سوى القليل منهم ممن يثبتون بالفعل المسامير الملولبة أو يلحمون أجزاء معاً. وكان الإنسان الآلي ينجز كل العمل. بل كانت هناك سيارات نقل آلية تلقي بمواد في أماكن على الأرض، وكانت تستطيع أن تشعر بوجود بشر يعترضون طريقها ومن ثم تعطيهم إنذاراً، «بيب، بيب، بيب» ليفسحوا الطريق.

شاهدت وأنا مبهور الإنسان الآلي الذي كان يضع المطاط لكي يحكم تثبيت الزجاج الأمامي لكل سيارة ليكساس. فقد كانت ذراع الإنسان الآلي تضع المطاط المنصهر الساخن بعناية في مستطيل محكم حول النافذة.

غير أن أكثر ما أثار إعجابي أنه عندما تنتهي هذه الذراع من العملية كانت هناك دائماً نقطة دقيقة من المطاط تظل معلقة في طرف إصبع الإنسان الآلي -مثل نقطة معجون الأسنان التي قد تظل عالقة عند طرف الأنبوبة بعد الضغط عليها فوق فرشاة الأسنان. أما في مصنع ليكساس فكانت ذراع الإنسان الآلي تتحرك بعيداً في شبه حلقة متسعة إلى أن يتقابل طرفها مع سلك معدني شديد الدقة قد تتعذر رؤيته لكي يفصل بعناية تلك النقطة الدقيقة الأخيرة من المطاط الساخن الأسود، بحيث لا يتبقى شيء منه. وكنت

أظل أحدق في هذه العملية، وأتساءل في نفسي عن حجم التخطيط والتصميم والتكنولوجيا الذي استخدم لكي تؤدي ذراع الإنسان الآلي مهمتها ثم تدور بعيداً في كل مرة، وبالزاوية المحددة بدقة، حتى يتسنى لذلك السلك الصغير صغر ظفر الإصبع الإبهام قص النقطة الأخيرة من المطاط الساخن، ثم يبدأ نظيفاً من جديد في النافذة التالية. لقد كان شيئًا مثيراً.

بعد انتهاء جولتي في المصنع، عدت إلى مدينة تويوتا لكي أستقل مرة أخرى القطار الطلقة (السهمي) للعودة إلى طوكيو. وياله من اسم مناسب لهذا القطار! لأنه بالفعل يشبه طلقة الرصاص في كل من شكله وسرعته على السواء. وكنت جالساً أتناول وجبة العشاء من صندوق السوشي الذي تستطيع شراءه من أي محطة قطارات في اليابان، وأنا أقرأ في صحيفة ***إنترناشيونال هيرالد تريبيون*** لذلك اليوم، وجذبت اهتمامي قصة إخبارية في أعلى الركن الأيمن من الصفحة الثالثة. كانت القصة تتعلق بالتقرير الصحفي اليومي لوزارة الخارجية الذي قدمته مارجريت ذي توتوايلر المتحدثة باسم وزارة الخارجية، وكان قد تضمن تفسيراً مثيراً للجدل الدائر حول قرار الأمم المتحدة لعام 1998، ويتعلق بحق اللاجئين الفلسطينيين في العودة إلى إسرائيل. لا أتذكر الآن التفاصيل كلها، بيد أنه مهما كان ذلك التفسير فقد تسبب في إثارة العرب والإسرائيليين على السواء، وأثار غلياناً في الشرق الأوسط، وكان ذلك ما تضمنته هذه القصة الإخبارية.

وهكذا كنت منطلقاً بسرعة 180 ميلاً في الساعة داخل أحدث قطار في العالم، وأنا أقرأ هذه القصة التي تتعلق بأقدم منطقة في العالم. وقد جالت بذهني فكرة أن هؤلاء اليابانيين الذين زرت من فوري مصنعهم لسيارات ليكساس والذين

أستقل قطارهم هذا يبنون أعظم سيارة رفاهية في العالم بالإنسان الآلي. وهنا، في أعلى الصفحة الثالثة من صحيفة ***هيرالد تريبيون*** ما زال الناس الذين عشت بينهم لسنوات عديدة في بيروت والقدس والذين أعرفهم معرفة وثيقة، يقتتلون حول ملكية شجرة الزيتون هذه أو تلك. وتبين لي حينئذ أن السيارة ليكساس وشجرة الزيتون رمزان جيدان لحقبة ما بعد الحرب الباردة تلك: نصف العالم خرج من الحرب الباردة عازماً فيما يبدو على بناء سيارة ليكساس أفضل، وكرس نفسه لتحديث وتبسيط وخصخصة اقتصادياته حتى يتسنى له الازدهار في نظام العولمة. والنصف الآخر من العالم -بل نصف بلد واحد أحياناً أو نصف شخص واحد أحياناً أخرى- ما زال محاصراً في الصراع على من الذي يملك شجرة الزيتون هذه أو تلك.

إن أشجار الزيتون شيء مهم. إنها تمثل كل شيء تعنيه الجذور بالنسبة لنا، يثبتنا في مواقعنا، ويحدد هويتنا وموقعنا من العالم - سواء كان ذلك انتماء إلى أسرة أو مجتمع أو قبيلة أو أمة أو دين أو إلى ما هو أهمها جميعاً، مكان يسمى الديار. إن أشجار الزيتون هي ما يمنحنا دفء العائلة، وبهجة التفرد، وحميمية الطقوس الشخصية، وعمق العلاقات الخاصة، فضلاً عن الثقة والأمان في بسط أيدينا للخارج والالتقاء بالآخرين. إننا أحياناً نقاتل بشراسة بسبب أشجار الزيتون التي نمتلكها؛ لأنها في أفضل الظروف توفر لنا الشعور بالاعتزاز بالنفس وبالانتماء اللذين لا غنى عنهما لبقاء الإنسان مثل الغذاء للمعدة. أما في أسوأ الظروف وعندما نصل بالأمور إلى حد الإفراط فإن تسلط أشجار الزيتون التي نمتلكها على أفكارنا يؤدي بنا إلى اختلاق هويات وروابط ومجتمعات قائمة على إبعاد

الآخرين، وعندما يصل هذا التسلط، في أسوأ الحالات، إلى نزعة القتل بالفعل، مثلما حدث من النازيين في ألمانيا أو الصرب في يوغوسلافيا، فإنه يؤدي إلى إبادة الآخرين.

لقد كانت الصراعات بين الصرب والمسلمين، وبين اليهود والفلسطينيين، والأرمن والأذريين حول من له حق ملكية أشجار الزيتون هذه أو تلك شديدة الشراسة تحديداً لأنها كانت تدور حول من الذي سيكون ملازماً لدياره ومتشبثاً بالعالم المحلي ومن الذي لن يكون كذلك. والمبرر المنطقي الأساسي لهذه الصراعات هو: لا بد لي من السيطرة على شجرة الزيتون هذه، لأنه إذا سيطر عليها الآخرون فلن يؤدي ذلك إلى مجرد وقوعي تحت ضغط إبهامهم اقتصادياً وسياسياً فحسب، بل إن إحساسي بمعنى الوطن سوف يضيع مني. ولن أتمكن قط من خلع حذائي والتمدد في استرخاء. وليس هناك الكثير من الأشياء التي تثير حفيظة الناس مثل محاولة انتزاع هويتهم وينشدون لذلك، ويقرضون الشعر لذلك ويؤلفون الروايات عن ذلك. فالحياة بدون الإحساس بالوطن وبالانتماء، تصبح قاحلة وبلا جذور. والحياة كالعشب العشوائي ليس حياة على الإطلاق.

إذن ما الذي تمثله السيارة ليكساس؟ إنها تمثل مسعى أساسي للإنسان منذ بدء الخليقة - السعي نحو الرزق والتقدم والازدهار والتحديث- حسبما يدور في لعبة نظام العولمة اليوم. السيارة ليكساس تمثل كل الأسواق العالمية المزدهرة، والمؤسسات المالية وتكنولوجيا الكمبيوتر التي نسعى من خلالها إلى رفع مستويات المعيشة اليوم. غير أن السعي في طلب التقدم المادي، بالنسبة لملايين الناس في

الدول النامية، ما زال ينطوي على السير إلى البئر، وحرث الأرض بقدمين حافيتين خلف ثور، أو جمع الأخشاب وحملها فوق الرؤوس لمسافة خمسة أميال، إن هؤلاء الناس ما زالوا يكدون في طلب الرزق.

بيد أن هذا السعي نحو حياة مادية أفضل ونحو التحديث، يجري بالنسبة لملايين الناس في الدول المتقدمة على نحو مطرد، وهم يرتدون الأحذية ماركة نايك، ويتسوقون في أسواق متكاملة ويستخدمون تكنولوجيات الشبكات الجديدة، ولئن كان هناك أناس مختلفون لهم حريات مختلفة للوصول إلى الأسواق والتكنولوجيات الجديدة التي يتسم بها نظام العولمة، ويحصلون منها على فوائد بالغة التفاوت، إلا أن ذلك لا يغير حقيقة أنها ما زالت الأدوات الاقتصادية التي يعرف بها اليوم وأن الجميع يتأثرون بها سواء كان ذلك بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

هذا هو السبب في أنني أحب أن أقول إن المراجحة بين المعلومات توفر لنا العدسات التي نحتاجها للنظر إلى عالم اليوم، ولكن العدسات وحدها لا تكفي. فنحن بحاجة أيضاً إلى نعرف ماهية الشيء الذي ننظر إليه أو نبحث عنه. كما أنا ننظر إليه أو نبحث عنه هو كيف أن مسعانا منذ بدء الخليقة من أجل الأحسن مادياً ومن أجل الهوية الفردية والاجتماعية -الذي ترجع آثاره إلى سفر التكوين- تجسد في نظام العولمة الدولي السائد اليوم. وتلك هي دراما السيارة ليكساس وشجرة الزيتون.

في نظام الحرب الباردة، كان التهديد الأكثر احتمالاً الذي تتعرض له شجرة

زيتونك يأتي من شجرة زيتون أخرى، يأتي التهديد من أن يخرج عليك جارك، ثم يقتلع في عنف شجرة زيتونك ويغرس شجرته مكانها. وهذا التهديد لم يقض عليه اليوم ولكنه في الوقت الراهن تناقص في كثير من مناطق العالم، أما التهديد الأكبر الذي تتعرض له شجرة زيتونك اليوم فقد يأتي على الأرجح من السيارة ليكساس - من قوى للسوق وتكنولوجيات مجهولة المصدر، تتخطى حدود الدول، وتعمد إلى التجانس وتوحيد القياس صنعت النظام الاقتصادي العالمي اليوم. وثمة أشياء في هذا النظام من شأنها أن تكسب السيارة ليكساس قوة فائقة بحيث تتمكن من اجتياح كل شجرة زيتون تقع في طريقها وسحقها - ومن الممكن أن يسفر ذلك عن ردة حقيقية. غير أن هناك أشياء أخرى في هذا النظام تُكسب حتى أصغر المجتمعات حجماً وأضعفها سياسياً القوة لاستخدام هذه التكنولوجيات والأسواق في سبيل المحافظة على أشجار زيتونها وثقافتها وهويتها. لقد بهرني أثناء أسفاري حول العالم في السنوات الأخيرة رؤية هذه المباراة المتزامنة في المصارعة، ذلك الصراع العنيف، وعملية التوازن بين السيارة ليكساس وشجرة الزيتون.

لقد انعكست مباراة المصارعة بين السيارة ليكساس وشجرة الزيتون على نظام العولمة الجديد في الاستفتاء الذي أجري في النرويج عام 1994 حول انضمامها أو عدم انضمامها إلى الاتحاد الأوروبي وكان انضمامها سيعد ضربة ساحقة للنرويجيين فالنرويج -برغم كل شيء- تقع في أوروبا. وهي دولة غنية ومتقدمة وحجم تجارتها مع أوروبا لا بأس به. والانضمام إلى الاتحاد الأوروبي له جدواه الاقتصادية بكل المعايير بالنسبة للنرويج في عالم يزداد عولمة. ولكن الاستفتاء

أخفق، لأن عدداً كبيراً من النرويجيين شعروا أن الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي قد يعني اقتلاع الكثير من الهوية الخاصة بالنرويجيين وبطريقتهم في الحياة، التي ما زال النرويجيون يستطيعون الحفاظ عليها بدون عضوية الاتحاد الأوروبي بفضل البترول النرويجي في بحر الشمال الذي يباع في إطار اقتصاد عولمي. وكان الكثير من النرويجيين ينظرون إلى الاتحاد الأوروبي ويقولون في أنفسهم: الآن دعني أقولها صراحة هل سيتعين عليّ أن آخذ هويتي النرويجية وأن أضعها في مطبخ أوروبي، حيث تحول إلى دقيق أوروبي على يد بيروقراطيين أوروبيين تدفع مرتباتهم بالدولار الأوروبي في البرلمان الأوروبي في العاصمة الأوروبية التي يغطي أخبارها صحفيون أوروبيون؟ هاي كلا، شكراً من الأفضل لي أن أظل بندقية رش شتين من النرويج، وأن أتشبث بهوية شجرة زيتوني الفريدة وإن أدى ذلك إلى انخفاض كفاءتي الاقتصادية قليلاً.

أما أن تكون السيارة ليكساس وشجرة الزيتون في حالة توزان صحي فقد تمثل في تلك القصة التي رواها لي جلين بريكيت، أحد كبار نواب الرئيس في المجموعة الدولية للحفاظ على البيئة، عند زيارته لقبائل الكايابو بقرية أوكر Auker الهندية في كايابو Kayapo التي تقع في أحد الأطراف المنعزلة في الغابة المطيرة في حوض نهر الأمازون بالبرازيل ولا يمكن الوصول إليها إلا بطائرة ذات محرك صغير. قال بريكيت وهو يعود بذاكرته، «عندما هبطت الطائرة على ممر الهبوط العشبي، استقبلنا جميع سكان القرية بملابسهم التقليدية، وبدون ملابس، وبوجوههم المطلية، ويضعون على رؤوسهم كاب البيزبول الأمريكية التي تحمل شعارات مختلفة. وكنت قد ذهبت إلى هناك ضمن وفد من

المجموعة الدولية لحماية البيئة للتفتيش على التقدم الذي حققته محطة البحوث البيولوجية التي نديرها أعلى النهر مع الكايابو. وكان الكايابو قد حافظوا على مساحة كبيرة سليمة في الأمازون طوال عدة قرون عن طريق القوة فقط. وقد تعلموا الآن حمايتها عن طريق التعاون مع العلماء الدوليين، ودعاة الحفاظ على البيئة ورجال الأعمال المهتمين بالعمل الاجتماعي. وكان في قريتهم طريق رئيسي صغير ويوجد بها متجر للمجموعة الدولية للحفاظ على البيئة وفرع من محلات بودي شوب، التي يمتلكها أصحاب مصانع صابون مهتمون بشؤون البيئة. وهكذا بعد أن قضينا يومين في محطة البحوث البيولوجية، عدنا مرة أخرى إلى القرية لإنجاز بعض الأعمال النهائية. وكنا قد أعددنا العدة لإقامة سوق في الهواء الطلق لعرض معروضات من ثقافة الكايابو التقليدية، والأشغال اليدوية، والسلال، والعصى الحربية، والرماح، والأقواس والسهام. ثم بدأت مجموعتنا في شراء كل هذه الأشياء بأسعار مرتفعة جداً بالدولار الأمريكي. وبعد ذلك ذهبنا للجلوس في كوخ الرجال بوسط تلك القرية التي يسكنها الكايابو، ويمكن اعتبارها قادمة من عصر ما قبل التاريخ. ولاحظت أثناء جلوسي مع الرجال البارزين في هذه القرية أنهم يشاهدون جميعاً تليفزيون واحد متصل بطبق كبير للقمر الصناعي. وكان الرجال ينتقلون جيئة وذهباً بين قناة تذيع مباراة كرة قدم برازيلية وقناة تذيع الأسعار الجارية للذهب في الأسواق العالمية. وكان رجال الكايابو يريدون التأكد من أنهم يبيعون الذهب الذي يعثرون عليه بالسعر الدولي السائد لصغار رجال التعدين الذين سمحوا لهم بالحفر على أطراف غابتهم. وبعد ذلك يستخدمون تلك

الأرباح التي يحققونها من سوق الذهب الدولية في حماية أسلوب حياتهم الفريد في وسط الغابة المطيرة في حوض الأمازون.

أما تفوق شجرة الزيتون على السيارة ليكساس فقد تمثل في قرار الهند في ربيع عام 1998 بتحدي العالم واستئناف تجارب أسلحتها النووية. فلقد قمت بزيارة للهند بعد فترة قصيرة من إجراء التجارب، حيث تحدثت مع نماذج من الأغنياء والفقراء، ومن الحكوميين وغير الحكوميين، ومن القرويين وسكان المدن. وانتظرت في صبر الالتقاء بذلك المواطن الهندي الذي قد يقول لي: «إن هذه التجارب النووية، كما تعلم شيء غبي حقيقة. إنها لن تحقق لنا مزيداً من الأمن بل إنها ستكبدنا في الواقع عقوبات اقتصادية». وكنت على ثقة من أن مثل هذا الإحساس موجود - ولكنني لم أعثر قط على واحد يعبر عنه. بل قد يقول لأولئك السياسيين الهنود الذين شجبوا تجاربهم النووية باعتبارها مناورة رخيصة مغالية في الوطنية من جانب الحكومة الهندوسية الوطنية الجديدة في الهند. كانت هذه التجارب السبيل الوحيد أمام الهند للحصول على ما ترغب بشدة الحصول عليه من الولايات المتحدة والصين: ا ل ا ح ت ر ا م. وأدركت في النهاية عمق هذا الشعور عندما ذهبت لزيارة أحد دعاة حقوق الإنسان من الهنود ويرتدي ثوباً في لون الزعفران، هو سوامي أجنيفيش. جال في ذهني ونحن جالسين على الأرض في حجرة المعيشة بمنزله البسيط في دلهي الخاطر التالي: بالتأكيد سيكون هذا الشخص هو الذي يندد بهذه التجربة النووية. غير أنه ما إن بدأنا الحديث حتى أعلن قائلاً: «نحن هنا الهند، ثاني أكبر دولة في العالم! إنك لا تستطيع أن تغفل هذه الحقيقة، والهند لا تشعر بأنها مهددة من جانب

باكستان، ولكن محور الصين والولايات المتحدة عمد إلى تهميش دور الهند فى اللعبة الدولية بأسرها». وفى اليوم التالى ذهبت إلى داسنا، وهى قرية تقع فى شمال نيو دلهى، حيث كنت أجرى أحاديث بصورة عشوائية مع أصحاب المحال. وتعتبر داسنا واحدة من أفقر الأماكن التى رأيتها على الإطلاق. ولا يبدو أن أحداً فيها لديه حذاء. وكل من فيها جلد على عظم. وكان فيها جاموس الماء والدراجات أكثر مما فيها من عربات. كان الجو مثقلاً برائحة روث الأبقار المستخدم كوقود. غير أنهم كانوا فخورين بعرض حكومتهم للصوت والضوء النووى. قال لى برامود باترا طبيب القرية فى داسنا البالغ من العمر اثنين وأربعين عاماً، «نحن بلد يضم 900 مليون نسمة. ولن نموت بسبب هذه العقوبات، إن هذه التجربة النووية معنية باحترام الذات، واحترام الذات أهم من الطرق والكهرباء والماء. وعلى كل حال، ما الذى فعلناه؟ لقد فجرنا قنبلتين. إننا كمن أطلق رصاص بندقيته فى الهواء. إننا لم نتسبب فى أذى لأى إنسان».

بيد أنه على الرغم من أن دوافع شجرة الزيتون الهندية تفوقت فيما يبدو على حاجاتها للسياسة ليكساس إلا أنه عندما يحدث ذلك فى نظام العولمة فى يومنا هذا، يكون له دائماً ثمن غير ظاهر على المدى البعيد. فقد كنت أثناء زيارتى لنيو دلهى أقيم فى فندق أوبروى، حيث كنت أقضى بعض الوقت فى السباحة فى حمام السباحة فى نهاية كل يوم للتغلب على آثار درجة الحرارة التى كانت تصل إلى 100^{o} فهرنهيت. وفى أول يوم لى هناك، وأثناء قيامى ببعض تدريبات سباحة الصدر، كانت هناك امرأة هندية فى الحارة المجاورة لى. وأثناء إحدى فترات الاستراحة تبادلنا الحديث حيث قالت لى إنها تدير المكتب الهندى لإخوان سالمون ـ سميث بارنى، أكبر بنوك الاستثمار الأمريكية. قلت لها إننى كاتب عمود صحفى جئت إلى الهند للكتابة عن الجزيئات الدقيقة المشعة التى تتساقط من الجو فى أعقاب التجارب النووية الهندية.

سألتنى ونحن نخوض فى مياه حمام السباحة: «هل تدرى من يزور المدينة؟» قلت وأنا أهز رأسى: «كلا، من الذى يزور المدينة؟»

قالت: «خبراء وكالة موديز». ووكالة موديز لخدمة المستثمرين وكالة دولية تقيِّم اقتصاديات الدول وتعطى درجات أ، ب، جـ لها، بحيث يعرف المستثمرون فى أنحاء العالم الدول التى تسير على سياسات اقتصادية سليمة والتى تسير على غير ذلك، وإذا حصل اقتصاد دولتك على ترتيب منخفض فإن ذلك يعنى أن عليها أن تدفع معدلات فوائد أعلى على قروضها الدولية. وأضافت السيدة: «لقد أرسلت وكالة موديز فريقاً لإعادة تقييم الاقتصاد الهندى».

وأضافت قائلة : «هل سمعت شيئاً عن قرارهم؟»

أجبت: «كلا. لم أسمع».

قالت وهى تسبح مبتعدة: «يجدر بك أن تتحرى عن ذلك».

وبالفعل تحريت. وتبين لى أن فريق وكالة موديز تحرك فى أنحاء نيو دلهى بصورة تماثل فى هدوئها وسريتها الطريقة التى أعد بها علماء الذرة الهنود قنبلتهم. ولم أتمكن قط من اكتشاف أى شئ عن القرارت التى اتخذوها، ولكن فى الليلة التى غادرت فيها الهند، كنت استمع إلى أخبار المساء عندما شد انتباهى الخبر الرابع فى النشرة. كان يقول إنه فى رد فعل لميزانية الحكومة الهندية الجديدة المتضخمة والمفتقرة إلى الاتجاه، وفى أعقاب التجارب النووية الهندية، والعقوبات التى فرضتها الولايات المتحدة على الهند لتفجيراتها النووية، قررت وكالة موديزخفض تصنيف الاقتصاد الهندى من «مرتبة الاستثمار»، التى تعنى أنه اقتصاد آمن للمستثمرين العالميين، إلى «مرتبة المضاربة»، التى تعنى أن هناك مخاطر. كما غيرت وكالة ستاندارد آند پورز للتصنيف الاقتصادى تقريرها عن الاقتصاد الهندى من «مستقر» إلى «سلبى». وذلك

من شأنه أن يؤدى إلى أن تدفع أى شركة هندية تحاول اقتراض أموال من الأسواق الدولية فوائد أعلى. ونظراً لأن معدل المدخرات فى الهند منخفض فإن الصناديق الأجنبية حاسمة فى أهميتها بالنسبة لدولة تحتاج إلى 500 مليار دولار لإنفاقها على البنية الأساسية الجديدة على مدى السنوات العشر التالية حتى تصبح دولة قادرة على المنافسة. إذن نعم، لقد كان لشجرة الزيتون أيامها فى الهند. ولكنها عندما تنمو على هذا النحو من السرعة فى نظام العولمة فلا بد دائماً من دفع الثمن، ولذلك أخذت الحكومة الهندية تبحث بعد شهور قليلة عن طريقة تحفظ بها ماء وجهها للهبوط من فوق شجرة الزيتون، لأن القيد الاقتصادى على تسلق تلك الشجرة قد ابتكر من أجل ثانى أكبر دول العالم من حيث عدد السكان.

ومن أمثلة التوازن بين قوتى السيارة ليكساس وشجرة الزيتون تلك الرحلة الجوية التى قمت بها على إحدى طائرات شركة طيران الخليج من البحرين إلى لندن، والتى كان مونيتور التليفزيون الموجود على مقعد درجة رجال الأعمال الذى أجلس عليه يتضمن قناة تبين للركاب موقع الطائرة بالتحديد من مدينة مكة طوال الوقت، وذلك باستخدام قمر صناعى لتحديد الموقع فى العالم (GPS) يتصل بهوائى الطائرة. وكانت الشاشة تظهر رسماً بيانياً للطائرة على صورة نقطة بيضاء تتحرك عبر الرسم البيانى كلما تغير اتجاه الطائرة. وقد سهّل ذلك للركاب المسلمين، المفروض عليهم أداء خمس صلوات يومياً وهم متجهون نحو مكة، معرفة كيف يتجهون إليها وهم داخل الطائرة بسجاجيد صلاتهم. وقد رأيت أثناء الرحلة عدداً من الركاب بالقرب منى يتجهون إلى مطبخ الطائرة لأداء صلواتهم، وكانوا يعرفون وجهتهم تماماً بفضل نظام قمر تحديد الموقع فى العالم.

أما السيارة ليكساس التى تتجاهل شجرة الزيتون فى حقبة العولمة فقد كانت جزءاً من جهاز كمبيوتر أرسله لى أحد أصدقائى. وقد كتب على ظهره، « هذا الجزء صنع فى ماليزيا وسنغافورة والفلبين والصين والمكسيك وألمانيا والولايات المتحدة

وتايلاند وكندا واليابان. لقد صنع فى كثير من الدول بحيث يتعذر علينا تحديد دولة المنشأ».

أما السيارة ليكساس التى تبز شجرة الزيتون فى حقبة العولمة فقد كانت فقرة صغيرة ظهرت فى مجلة ***الرياضة المصورة*** *Sports Illustrated* فى العدد الصادر يوم11 أغسطس عام 1997 تقول: «إن نادى لانسانتفريد لكرة القدم فى ويلز الذى تأسس قبل 38 عاماً غير اسمه إلى توتال نيتورك سولوشانز Total Network Solutions فى مقابل 400 ألف دولار حصل عليها من إحدى شركات التليفون الخلوى».

أما السيارة ليكساس وشجرة الزيتون وهما يعملان حقاً فى عصر العولمة فقد تمثل فى اليوم الذى ظهر فيه بوريس يلتسين فى شبكة الإنترنت. ففى 12أبريل عام 1998، أذاعت وكالة أنباء أسوشييتد برس النبأ التالى:

موسكو (أ ب) ـ بوريس يلتسين فوق الشبكة؟ حسناً، تقريباً. ظهر الرئيس الروسى بوريس يلتسين على الخط مباشرة من الكرملين لمدة 30 دقيقة يوم الثلاثاء، حيث أجاب على الأسئلة التى وجهت إليه من أنحاء العالم أثناء جلسة محادثة على الهواء نظمتها شبكة MSNBCعلى موقعها فى شبكة الإنترنت.

سؤال من رجل فى هولندا: ما هو رأى يلتسين فى التدخين؟ الإجابة: أكرهه.

سؤال: هل تقبل روسيا امرأة فى منصب الرئيس؟ الإجابة: مستحيل!

سؤال: هل ليلتسين أى جذور إيرلندية؟ الإجابة: لم يبلغه أسلافه السيبيريين بمثل هذه المعلومة.

كانت هذه الدردشة هى الأولى بالنسبة إلى يلتسين الذى يعتبر مبتدئاً فيما يتعلق بالاختراعات التكنولوجية. ولكنه فى الواقع لم يستخدم الكمبيوتر المتنقل الذى أمامه ولم يكن مطالباً بأن يكافح مع أى من أجراس وصفارات الإنترنت

ذات التكنولوجيا المتقدمة. فقد اختارت شبكة MSNBC 14 سؤالاً من بين 4900 سؤال تلقتها، وترجمها أحد المترجمين إلى الروسية. ثم قام آخر بترجمة إجابات يلتسين مرة أخرى إلى الإنجليزية وأملاها إلى ميكروفون متصل بمقر شبكة تليفزيون MSNBC فى ريدموند بواشنطن، حيث طبعت على الشبكة. وقالت شبكة التليفزيون إن 4000 شخص تحدثوا أثناء هذه الجلسة. وكان كثيرون من المواطنين الروس قد تعاملوا مع أجهزة الكمبيوتر والإنترنت فور انهيار الاتحاد السوفيتى، فى حين ظل الكثير من مشروعات الأعمال تستخدم العدادات والمكالمات التليفونية الدولية التى تحجز قبلها بعدة ساعات، إن لم يكن بعدة أيام.

كذلك كانت السيارة ليكساس وشجرة الزيتون تعملان معاً فى عصر العولمة فى قصة غير عادية نشرتها صحيفة ***واشنطن بوست*** يوم 21 سبتمبر1977، جاء فيها أن ضباط مكافحة التجسس الروس يشتكون من أنهم يضطرون إلى دفع مبلغ لتجنيد جاسوس من وكالة المخابرات المركزية الأمريكية CIA كعميل مزدوج يساوى ضعف المبلغ الذى يدفع إذا كان الوضع معكوساً. فقد صرح مسئول فى جهاز الأمن الفيدرالى الروسى (خليفة جهاز مخابرات كى جى بى KGB)، بشرط عدم الإفصاح عن هويته، لوكالة أنباء أيتار تاس بأن الجاسوس الروسى يمكن شراؤه بمبلغ لا يتجاوز مليون دولار فى حين يطلب الواحد من عملاء وكالة المخابرات المركزية الأمريكية مليونى دولار مقابل العمل للجانب الآخر.

وفى الوقت نفسه الذى ظهر فيه هذا التقرير تقريباً، نشرت صحيفة يديعوت أحرونوت الإسرائلية، ما أعتبره أول نبأ ينشر على الإطلاق عن وجود سوق حرة للمخابرات. فقد ذهب مراسلو صحيفة يديعوت أحرونوت إلى موسكو و اشتروا بعض صور الأقمار الصناعية السرية الروسية لقواعد صواريخ سكود فى سوريا. ثم استأجرت

الصحيفة بعد ذلك خبيراً أمريكياً خاصاً فى صور الأقمار الصناعية لتحليل الصور. ثم نشرت يديعوت بعد ذلك الصفقة كلها على صورة نبأ مثير عن التهديد الجديد الذى تمثله الصواريخ السورية، بدون أن تورد تعليقاً واحداً لأى مسئول حكومى. فما حاجتها إلى صوت عميق إذا كان لديها جيب عميق؟

ولا عجب فى أنه فى عام 1997 افتتح الأردنيون الموقع الساخن الجديد الخاص بهم على الإنترنت ليعلن عن التقاء شجرة الزيتون بالعولمة. عنوان الموقع: http:// www. arab. net/gid/welcome. html. هذه إذن هى الصفحة المحلية الخاصة بجهاز المخابرات الأردنى الحكومى، جهاز CIA الخاص بها ـ وأول وكالة مخابرات فى الشرق الأوسط يكون لها موقع خاص بها على الإنترنت. وذكر بيان رسمى أن: «الموقع يقدم لمحة ممتعة عن تاريخ إدراة المخابرات العامة (الأردنية) وعقيدتها، ومسئولياتها، ووجهات نظرها.

وفى النهاية، تدور قصتى المفضلة «السيارة ليكساس وشجرة الزيتون فى عصر العولمة» حول ابن أبو جهاد. كنت أحضر مؤتمر القمة الاقتصادى للشرق الأوسط الذى عقد فى العاصمة الأردنية عمان فى عام 1995، وكنت أتناول طعام الغداء بمفردى فى شرفة الماريوت عمان. وفجأة، اقترب شاب عربى من منضدتى وسألنى: «هل أنت توم فريدمان؟» قلت: «نعم»، قال الشاب فى أدب: «مستر فريدمان، لقد كنت تعرف أبى».

سألته: «من هو والدك؟»

قال: «أبى هو أبو جهاد». كان أبو جهاد، واسمه الحقيقى خليل الوزير، أحد الفلسطينيين وقد شارك وياسر عرفات فى تأسيس منظمة فتح الذى قاد بعد ذلك منظمة التحرير الفلسطينية. وكان اسم أبو جهاد هو اسمه المستعار، وكان هو القائد العام للعمليات العسكرية الفلسطينية فى لبنان والضفة الغربية أثناء الفترة التى كنت

أعمل فيها مراسلاً لصحيفة *نيويورك تايمز* فى بيروت. وقد تعرفت عليه بالفعل فى بيروت. وكان الفلسطينيون يعتبرونه بطلاً حربياً، وكان الإسرائيليون يعتبرونه أخطر إرهابى فلسطينى. وقد قامت فرقة إعدام إسرائيلية باغتيال أبو جهاد فى حجرة المعيشة بمنزله فى تونس يوم 16أبريل1988 ، حيث أفرغت مائة طلقة رصاص فى جسده.

قلت للشاب: «نعم أعرف والدك معرفة جيدة ـ وقد زرت مرة منزلكم فى دمشق. ماذا تعمل الآن؟»

قدم إلىّ الشاب بطاقة عمله. وقد كتب فيها، «جهاد الوزير، المدير الإدارى، مركز التجارة العالمى، غزة، فلسطين».

قرأت هذه البطاقة وقلت فى نفسى: «شئ مدهش. من تشى چيفارا إلى ديل كارنيجى فى جيل واحد».

إن التحدى فى حقبة العولمة هذه ـ بالنسبة للدول وللأفراد ـ يتمثل فى تحقيق توازن صحى بين الحفاظ على الإحساس بالهوية والوطن والمجتمع وبين القيام بكل ما من شأنه تحقيق البقاء داخل نظام العولمة. ويجب على أى مجتمع يسعى إلى تحقيق الازدهار الاقتصادى اليوم أن يسعى باستمرار إلى بناء سيارة ليكساس أفضل والدفع بها إلى العالم. بيد أنه يجب أن لا يكون لأى إنسان أى أوهام بأن مجرد المشاركة فى هذا الاقتصاد العالمى سوف يجعل من أى مجتمع مجتمعاً صحياً. إذ إنه إذا جاءت هذه المشاركة على حساب هوية المجتمع، وإذا شعر الأفراد بأن جذور شجرة زيتونهم قد سحقت، أو لم تؤخذ فى الحسبان من جانب ذلك النظام العالمى، فإن جذور شجرة الزيتون تلك سوف تتمرد. إنها سوف تثور وتخنق العملية.

ويتوقف بقاء العولمة كنظام، إلى حد ما، على مدى تحقيق كل فرد منا هذا التوازن. وأى دولة بدون سيارة ليكساس لن تنمو قط أو تسير قدماً شوطاً بعيداً. وأى

دولة بدون أشجار زيتون مزهرة لن تكون راسخة الجذور أو آمنة بالدرجة التى تكفى لانفتاحها تماماً على العالم. بيد أن إحداث التوازن بينهما هو عملية كفاح مستمرة.

ربما كان ذلك هو السبب فى أن الكثير من القصص المفضلة لدىّ التى سوف تقرأها فى هذا الكتاب مصدرها زميلى القديم فى الكلية فيكتور فريدمان، الذى يقوم بتدريس إدارة الأعمال فى معهد روبين فى إسرائيل. اتصلت به تليفونياً مرة لتحيته فقال لى إنه مسرور لاتصالى به لأنه لم يعد لديه أرقام تليفوناتى. وعندما سألته عن السبب، قال إن جهاز الكمبيوتر المحمول الخاص به لم يعد موجوداً، وهو الجهاز الذى كان يحتفظ فيه بكل شئ ـ عناوين أصدقائه، أرقام بريدهم الإلكترونى، أرقام تليفوناتهم وجدول أعماله للعامين التاليين، ثم أخذ بعد ذلك يحكى لى ما حدث لجهاز الكمبيوتر.

«كان لدينا جهاز كمبيوتر مكتبى فى المنزل وحدث به عطل. وأخذت هذا الجهاز إلى محل لإصلاح أجهزة الكمبيوتر فى هاديرا (مدينة تقع فى وسط إسرائيل). اتصل بى المحل بعد أسبوعين وقال إن الكمبيوتر الشخصى الخاص بى قد تم إصلاحه. وهكذا دفعت بجهاز الكمبيوتر الصغير الذى أحمله فى يدى إلى داخل حقيبة الأوراق الجلدية الخاصة بى وذهبت بالسيارة إلى هاديرا لاسترجاع جهاز الكمبيوتر الشخصى الخاص بى بعد إصلاحه. غادرت المحل وأنا أحمل جهاز الكمبيوتر الشخصى الكبير وحقيبة الأوراق التى يوجد بداخلها جهاز الكمبيوتر الصغير. وعندما وصلت إلى مكان السيارة، وضعت حقيبة الأوراق على الرصيف، وفتحت حقيبة السيارة ووضعت فيها جهاز الكمبيوتر الشخصى الذى تم إصلاحه بكل حرص حتى أضمن أنه آمن. ثم ركبت بعد ذلك السيارة وسرت بها، تاركاً حقيبة الأوراق على الرصيف. حسناً، لقد أدركت بمجرد وصولى إلى مكتبى ما حدث وما سوف يحدث واتصلت على الفور بالشرطة فى هاديرا وقلت لهم، 'لا تنسفوا حقيبة أوراقى' (من الممارسات الإسرائيلية

الروتينية نسف أى لفافة أو حقيبة أوراق أو أى شئ مثير للشبهات متروك على أى رصيف، لأن هذه كانت الوسيلة التى بواسطتها فجر كثيرون من الفلسطنيين قنابل ضد المدنيين الإسرائيليين. وقد أصبح الإسرائيليون مدربين تدريباً عالياً لحماية أنفسهم فى مواجهة ذلك بحيث إنك إذا تركت لفافة لمدة دقيقة واحدة، فسوف تستدعى الشرطة على الفور). كنت أعلم أن أحداً لن يسرق حقيبة الأوراق. ففى إسرائيل، لن يلمس أى لص مثل هذا الشئ المتروك على الرصيف. غير أننى تأخرت كثيراً. فقد أبلغنى رجل الشرطة الذى رد على مكالمتى بأن فرقة مكافحة القنابل قد وصلت بالفعل إلى الموقع «وتعاملت معها». وعندما وصلت إلى مركز الشرطة سلمونى حقيبة أوراقى الجميلة وبها ثقب لطلقة رصاص اخترقتها من الوسط تماماً. وكان الكمبيوتر المحمول هو الشئ الوحيد الذى أتلفته الرصاصة. لقد تلقى إصابة مباشرة. وكانت حياتى كلها موجودة داخل هذا الشئ ولم أتمكن قط من تعويض ما فيه. عبرت للشرطة عن مدى الحرج الذى أشعر به لتسببى فى مثل هذه المشكلة. وكان ردهم علىّ: 'لا تشغل بالك، إن ذلك يحدث للجميع'. وظللت طوال عدة أسابيع أتحرك داخل حرم المعهد بحقيبة أوراقى وفى وسطها ثقب الرصاصة لأذكّر نفسى بأن أتوقف كثيراً لأمعن النظر فى الأمور. وقد كان معظم طلبتى فى منهج الإدارة فى الجيش الإسرائيلى، وبمجرد رؤيتهم لحقيبة الأوراق وبها ثقب الرصاصة انفجروا فى موجة من الضحك، لأنهم كانوا يعرفون تماماً ما حدث لها».

بعد انتهاء ڤيكتور من سرد هذه القصة قال: «بالمناسبة، إرسل لى رقم بريدك الإلكترونى. فلابد من أن أبدأ فى تدوين مفكرة جديدة للعناوين».